لم يكن حافظ إبراهيم فيما أبدع من شعر، شاعر مصر وحدها، بل كان شاعر العروبة والإسلام، فكان فؤادها الخافق، ولسانها الصادق، إذ كان يدرك أن ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها جزء لا يتجزأ من الأمس واليوم والغد العربي الإسلامي.

وقضية العروبة في شعر حافظ ومعاصريه كشوقي ومحرم، لم تكن منفصلة عن قضية الإسلام. ولما كان الوطن العربي هو قلب العالم الإسلامي بوصفه مهبط الإسلام، ومنبت حضارته وحامل مشعلها في العالمين، فضلاً عن عراقته التاريخية، وموقعه الحيوي بين القارات، وما تزخر به أرضه من كنوز وثروات، فقد كان للعروبة نصيب موفور من شعر حافظ.

الرؤية الإسلامية في شعر حافظ إبراهيم

ولنؤكد على هذا الانتماء إلى لسان العروبة الناطق بالقرآن الكريم، وبيان وقوف حافظ للدفاع عن هذا اللسان بعد أن حاول أعداء الإسلام أن يرموه بالقصور في استيعاب العلم الحديث والتعبير عن مظاهر حضارة العصر، والعجز عن التطور، والدعوة إلى استبدال العامية بالفصيحة، متجاهلين أن الفصيحة هي اللغة المشتركة التي تتجاوز حدود الأقاليم إلى جميع الناطقين بالعربية، ولم يكن هدفهم من وراء ذلك في الواقع، إلا القضاء على الإسلام ومحوه من قلوب المسلمين بعد أن يحرفوا اللسان العربي، لسان القرآن الناطق. يقول حافظ على لسان اللغة العربية:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي

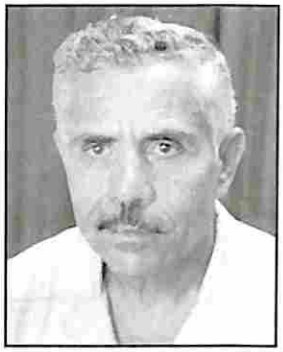

بقلم: د.مصطفى محمد الفار*
الأردن

ويشيد بآباء العرب الأولين في الجزيرة وطن العرب الأم:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً
يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
حياءً بتلك الأعظم النخرات[1]

ويعبر حافظ عن إحساسه المتوهج بالتراث العربي في الدين والدولة والحضارة، وذلك في نشيد الشبان المسلمين فيقول:

أعيدوا مجدنا دنيا ودينا
وذودوا عن تراث المسلمينا
فمن يعنو لغير الله فينا؟
ونحن بنو الغزاة الفاتحينا
ملكنا الأمر فوق الأرض دهرا
وخلدنا على الأيام ذكرى
أتى (عمر) فأنسى عدل (كسرى)
كذلك كان عهد الراشدينا
سلوا بغداد والإسلام دينُ:
أكان لها على الدنيا قرينُ؟
رجال للحوادث لا تلينُ
وعلمٌ أيَّدَ الفتح المبينا[2]

ويتبدى لنا وقوف حافظ إلى جانب الخليفة وهو الجامع لشمل المسلمين، والممثل لدولة الخلافة التي تقاتل دفاعاً عن الإسلام، ومن أجل إعلاء كلمة الدين، فنراه في سنة ١٩٠١م يهنئ السلطان عبد الحميد بمناسبة جلوسه على عرش الخلافة، فنشعر أنه راضي النفس، فخور بما تقوم به دولة الخلافة بعد فوزها في حرب اليونان التي انتهت عام ١٨٩٨م، وبعد أن اتجه الخليفة في سنة ١٩٠٠م لإنشاء خط سكة حديد الحجاز الذي سيربط معظم دول الخلافة العثمانية بعضها ببعض، والذي سيجعل أداء فريضة الحج عملاً ميسراً بعد أن كان المسلمون يتحملون في سبيل ذلك مشاق مضنية، وسيساعد هذا على انتشار التجارة بين الدول الإسلامية[3]، ولذا نرى حافظاً يمجد عبد الحميد فيقول:

تجلى على عرش الجلال وتاجه
يهش وأعواد السرير ترحّبُ
سما فوقه والشرق جذلان شيّق
لطلعته والغرب خذلان يرقبُ
فقام بأمرالله حتى ترعرعت
به دوحة الإسلام والشرق مجدبُ
وقرب بين المسجدين تقرباً
إلى الملك الأعلى فنعم المقربُ
وكم حاولوا في الأرض إطفاء نوره
وإطفاء نور الشمس من ذاك أقربُ[4]

ويطالعنا مرة أخرى بتهنئة السلطان عبد الحميد بتوليه الخلافة عام ١٩٠٨م، وكان هذا التاريخ يناسب الانتهاء من إنشاء سكة حديد الحجاز، كما يناسب إعلان الدستور ويقول:

أثنى الحجيج عليك والحرمان
وأجلّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربك إذ جعلت طريقه
أمناً وفزت بنعمة الرضوانِ
وجمعت بالدستور حولك أمة
شتى المذاهب جمة الأضغانِ
فغدوت تسكن في القلوب وترتقي
حبباتها وتحل في الوجدانِ
راعيتهم حتى علمت بأنهم
بلغوا أشدهمُ على الأزمانِ
فجعلت أمر الناس شورى بينهم
وأقمت شرع الواحد الديانِ
لو أنهم وزنوا الجيوش بمشهد
رجحت بجيشك كفة الميزانِ

ويقول:

أدركتم الدستور غير ملوث
بدم ولا متلطخاً بهوانِ
وفعلتم فعل الرجال وكنتمُ
يوم الفخار كأمة اليابانِ
فتفيؤوا ظل الهلال فإنه
جم المبرة واسع الإحسانِ
يرعى لموسى والمسيح وأحمد
حق الولاء وحرمة الأديانِ[5]

وحينما عُزل عبد الحميد وحل مكانه محمد رشاد، نظم حافظ قصيدة في الذكرى الأولى للدستور، وألقاها في حفل خاص عام ١٩٠٩م، وفيها يمجد الجيش العثماني الذي يرى فيه ناصراً للعدالة طالما أن قوته هي قوة للمسلمين والدين فيقول:

أجل هذه أعلامه ومواكبه
هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم
مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمّع العدلُ شمله
وتمت على عهد الرشاد رغائبه

وتدخل تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، ويقف الشعراء يشدون أزرها بكل ما أوتوا من بيان وفصاحة.

وباشتعال نار الحرب وازدياد لهيبها، كثرت ضحاياها من الجانبين، وفرض الإنجليز في مصر على المفكرين والشعراء القيود حتى لا يعبّروا عن آرائهم ومشاعرهم، وقاموا بعزل الخديوي عباس الثاني المعروف بولائه للعثمانيين، وتولى السلطان حسين كامل مكانه[٦]، وهنا ثارت مشاعر حافظ إبراهيم واستطاع أن يعبر عن مشاعره الإسلامية في قصيدته العمرية، التي تقترب من مئتي بيت، فقد حرص فيها على بيان عظمة الإسلام، وعدل حكامه الأوّل، وسيادته بين الناس، فألقى هذه القصيدة في حفل خاص وفيها يقول:

يا رافعاً راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها
وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله
إلى الجماعة إنذاراً وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيها شعباً
فجرّد السيف واضرب في بواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها
طعم المنية مراً عن مراميها[٧]

السلطان عبدالحميد

• عاصر حافظ إبراهيم أهم أحداث الأمة الإسلامية وشهد سقوط الخلافة وهجمة الاستعمار.

ويمضي مبيناً أسس الحق التي قام عليها الإسلام، وينتهي به القول إلى الرجاء بأن يظهر في أمة الإسلام أمثال عمر حتى تعود إلى عزها فيقول:

لعل في أمة الإسلام نابتة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى نرى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر
حتى ينبه منها عين غافيها[٨]

وهكذا نرى حافظاً يعيش أحداث الأمة الإسلامية بعقل منفتح وبعين نافذة تربط بين الماضي والحاضر، وهو يُرجع تأخر المسلمين إلى ضياع مبدأ الشورى، وفقدان العدل، وتهاون الحكام في مبادئ الشريعة، وبُعد الرعية عن دين الله، وأن الأمة لا تصلح إلا بما صلح أولها.

وتضع الحرب أوزارها في نوفمبر (تشرين الثاني) لعام ١٩١٨م. ويرى حافظ كيف تمزقت الخلافة العثمانية، وكيف استولى الإنجليز والفرنسيون على معابر البسفور، وكيف دخلوا بجنودهم إستانبول، فيروعه هذا الحال فيقول:

"أيا صوفيا" حان التفرق فاذكري
عهود كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عددتِ يوماً للصليب وأهله
وحلّى نواحيك المسيح ومريمُ
ودُقّت نواقيس وقام مزمِّر
من الروم في محرابه يترنمُ
فلا تنكري عهد المآذن إنه
على الله من عهد النواقيس أكرمُ
أيرضيكِ أن تغشى سنابك خيلهم
حماك وأن يُمْنى الحطيم وزمزمُ

وكـــيف يذل المسلمـــون وبينهم
كـــتـــابك يتلى كل يوم ويكرمُ
نبـــيك مـــحـــزونٌ وبيـــتك مطرقٌ
حـيـاءً وأنصـار الحـقـيـقـة نوّمُ
عـصـينا وخـالفنا فـعـاقـبت عـادلاً
وحكّمت فـينا اليـوم من ليس يرحمُ[٩]

وتلوح بارقة أمل أمام حافظ، فيجد هذا الأمل ممثلاً في المصلحين أمثال: محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ويحظى بتشجيع الإمام محمد عبده، ولكن اليأس أخذ يتسرب إلى نفسه بعد وفاة الأستاذ الإمام[١٠] حتى ليخشى أن تطول حياته كما يقول في رثائه:

سـلام على الإسـلام بعـد مـحـمـد
ســـلام على أيامـــه النضـــراتِ
على الدين والدنيا على العلم والحجا
على البـر والتـقـوى على الحـسـناتِ
لقـد كنت أخـشى عـادي الموت قـبله
فـأصـبحت أخشى أن تطول حياتي[١١]

لقد كان شعر حافظ الإسلامي صفحة مضيئة في تاريخ الأدب الإسـلامي، فـقـد نبـه إلى أهمـيـة الوحـدة والاتفـاق بين عناصـر الأمـة، ولا شك أن عـروس قصـائد حافظ في مجال توثيق الرابطة الأخوية بين لبنان ومصر تلك القصيدة التي أنشدها في بيروت عام ١٩٢٩م وفيها يقول:

مسجد آيا صوفيا

• يرجع حافظ إبراهيم تخلف المسلمين إلى تهاونهم في أمور دينهم أفراداً، وتخليهم عن مبدأ الشورى جماعات.

لـي مـــوطن في ربوع النيل أعظمـــه
ولي هنا في حِـمـاكم مـوطن ثانِ
إني رأيت على أهـرامـــهـــا حُللاً
من الجـــلال أراها فـــوق لبنانِ
لم يمح منهـا ولا من حـسن جـدتهـا
على التعاقب ما يمحو الجديدان[١٣]

وكذلك قصيدته الرائعة التي يؤكد فيها على وحدة سوريا ومصر فيقول:

لمصـــر أم لربوع الشـــام تنتـــسب؟
هنا العـلا وهناك المجـد والحـسبُ
خـدران للضـاد لم تهـتك سـتورهمـا
ولا تحـــول عن مـــغناهمـــا الأدبُ
أم اللغـات غـداة الفـخـر أمـهـمـا
وإن سألت عن الآداب فالعربُ[١٤] ■

الهوامش:

* كـاتب أردني من مـؤلفـاته دراسـات في الأدب العـربي، عـضـو رابطة الكتاب الأردنيين.

(١) ديوان حافظ إبراهيم، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٩م، ج١ ص٢١٠.
(٢) المرجع السابق، ص٢٥٥ .
(٣) عبد الرشيد سالم، دولة الخلافة الإسلامية، وكالة المطبوعات، الكويت، ص١٢٤ .
(٤) ديوان حافظ إبراهيم، دار صادر، بيروت، ج٢ ص٢٨٩.
(٥) المرجع نفسه، ج١ ص٤٤-٥٠ .
(٦) المرجع نفسه، ج٢ ص٤٨-٥٠ .
(٧) عبد الرشيد سالم، دولة الخلافة الإسلامية، ص١٥٣ .
(٨) ديوان حافظ إبراهيم، ج١ ص٩٧ .
(٩) المرجع نفسه، ص٩٨.
(١٠) المرجع نفسه، ص٨٨-٩٩ .
(١١) طاهر الطناحي، شوقي وحافظ، سلسلة كتاب الهلال، مايو ١٩٦٧م، ص١١٢ .
(١٢) المرجع السابق، ص١١٢ .
(١٣) المرجع السابق، ج١ ص١٠٠-١٠٥ .
(١٤) المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢٤ .